كسوف الأخلاق

١٤٣٦/٦/١هـ

تَذكرُ بعضُ كتبِ الأدب أن الخليفةَ العباسيّ المأمون كان في مجلســه، فنادى بالخادم: يا غــلام، فلم يجبه أحد، ثم نادى ثانيًا، وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركي، وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب؟! كلما خرجنــا من عندك تصيح: يا غلام، يا غــلام، إلى كم: يا غلام؟! فنكس المأمونُ رأسه طويلًا، يقول الراوي: فما شككتُ أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ، فقال:

يا عبد الله، إن الرجل إذا حسُنتْ أخلاقُه ساءت أخلاقُ خدَمه، وإذا ســاءت أخلاقُه حسنت أخلاقُ خدمه، وإنّا لا نستطيع أن نُسيء أخلاقَنا لنُحسِن أخلاقَ خدَمِنا[1].

والمأمون بهذه الإجابة يريد أن يوصل رســالةً مضمونها: إنني لستُ مســتعدًّا أن أتنازل عن مبادئي وقِيَمي لأن الطرف الآخر أساءَ أخلاقه! أو بعبارة أخرى: أعاملُ النــاس بأخلاقي لا بأخلاقهم، وإلا لهويتُ إلى دَرَكٍ بعيد.

(١) المستطرف (ص١٢٨).

هذا النوع من الناس، الذي يُصاب بـ (كســـوف أخلاقي) جزئيٍّ أو كليٍّ، لا ينفك الإنســـانُ من التعامل معهم، إنْ اختيارًا أو اضطرارًا، وقد يَجِـــد منهم ما يُثير الحفيظة، ويُخْرِجُ عـــن الطَّور، فهو هنا في حاجة لضبط نفسه، والحفاظِ على المبدأ الذي هو جزءٌ من شخصيته وسلوكه.

يقول أحدُ الإخوةِ: كان عندي ســـائق، وتعاملتُ معه بما أعتقده من مبادئ وقناعات راســـخة يمليها عليّ ديني أولًا، ثم ما أعلَمُه من ســـيرة قـــدوتي الأول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التعامل مع الخـــدم وأمثالهم؛ فوجدتُ منه جحودًا ونكرانًا للجميل بعد مدةٍ من الزمن، فلامني بعضُ الأصدقاء على إحســـان الأخلاق معه، وأن هذا النوع من الناس لا يَصلح معه الفضل، بل الذي يناسبهم العدلُ والحزمُ، خاصةً في ظل تواصل السائقين والخدم وأضرابهم عبر وســـائل التواصل، ونقلهم تجاربِ بعضهم في أســـاليب الابتزاز المختلفة لمكفوليهم، وممارســـة ما يســـمى (ليّ الذراع)؛ ليضطر الكفيلُ إلى الاستجابة لمطالب رفع الراتب، وغيرها من المطالب المعروفة.

وفي المقابـــل، وجد صاحبُنـــا تأييدًا من بعض أصدقائـــه، وقالوا له: لا تتنازل عن مبادئك لأجل هذا الكسوف الأخلاقي من قِبَل هذا العامل أو السائق، ولكن عليك بالاعتدال وعدم الإفراط.

فأيُّ الفريقين أولى بالصواب؟!

إن المتأمل للسيرة النبوية الشريفة، التي تنوعت فيها المواقفُ النبوية، مع العدوّ والصديـــق، والصغير والكبير، والموافِـــق والمخالف؛ يجد أن الهدي العام الذي ســـلكه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمومًا هـــو: امتثال ذلك التوجيه الربـــاني: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩]،

وأن ما ســـوى ذلك هو حالات اســـتثنائية، وما خـــبَرُ فتح مكة إلا أكبر شاهد على ذلك.

ويمكن التأكيد على ما ذكره الصديق المؤيِّد بأنه قد لا تحْسُـــن المبالغة في الإكرام الذي لم يَعتدْ عليه هذا النوعُ من الناس، ما قد يَشْـــعرُ معه هذا الخادمُ أو الســـائقُ أنه حـــقٌّ واجبٌ متعيّنٌ على الطـــرَف المقابل، ثم يبدأ معه برفع ســـقف المطالِب التي لا تُطاق، مستغلًّا هذا الواقع الذي صار الحصول فيه على خادمٍ أو سائقٍ مناسِبَين من الأمور الشاقة والمرهِقة.

وبكل حال، فلكلّ حالةٍ لبُوسُها، والعاقلُ مَن قدّر الأنسب والأوفق في الأســـلوب، مع المحافظة عـــلى أدنى درجات التـــوزان الخُلُقي، وألا يَحمِلنا نَزَقُ هذا النوع مِن لؤماءِ الأخلاق أن نترك مبادِئَنا الراسخة.